الباب الخامس

شعر الرصافي في القضايا الإجتماعية والسياسية

الباب الخامس

شعر الرصافي في القضايا الإجتماعية والسياسية

يعد معروف الرصافي من كبار شعراء اللغة العربية في العصر الحديث. كان أيضا فيلسوفا وبحاثة و مربيا وسياسيا ومصلحا كذلك. نشأ في بيئة عراقية سيئة. كانت أحوال الإجتماعية والسياسية في وقته متخلفة جدا. اتصل الرصافي منذ صغره بالحياة الإجتماعية اتصالا عميقا. وعالج مشكلات المجتمع كالفقر والبوئس فبشر بالتجديد والتطور ودافع عن الطبقات المحرومة كالمرأة والفقراء وقام ضد سياسة الإنكليز الإستعمارية في العراق. فبذل الرصافي جهوده النبيلة نحو نصف قرن في خدمة الأمة بعقله وشعره وأنه لاشك رائد الشعراء العراقيين في العصر الحديث. قد حمل لواء الوطنية وسيفها ونظم من الشعر ما يفصح عن الحقيقة الجديدة في حياته، حقيقة التحضر وهذه الحقيقة جديدة بالنسبة إليه لأنه كان بدوى الإرث، فانتقل بشعره الى التحضر. وتظهر في شعره نزعات قوية وعواطف جياشة تدل عمق تفكيره في الأبحاث الكونية والفلسفية وقوة حماسته في المسائل الإجتماعية والسياسية والوطنية.[1]

الف) قضايا المرأة عند الرصافي:

الشرقية بعامة، والعربية بخاصة ضحية الإهمال والتقييد على حين كان الرجل آخذا بأسباب النهوض، فكان هناك بون شاسع وهوة سحيقة بين الرجل والمرأة. طلب الرجل لنفسه الحرية وكبلها بقيود الإستعباد، و طلب لنفسه العلم وأبقاها تتعثر في دياجير الجهالة، وهكذا بقيت المرأة في الشرق ترسف في هذه الأغلال، وعطل بذلك نصف الأمة عن العمل ، فبقيت رهينة بيتها، و حصر همها في تدبير الطعام و تربية الأولاد، فربتهم على ما ألفت وعرفت من الأساليب العتيقة البالية.

ولقد هب جماعة من دعاة الإصلاح يحاولون انتشال المرأة مما تكابد من آلام وما تعامل به من عنت داعين إلى السفور وطرح الحجاب، وضررة تزويد المرأة من حياض العلم والمعرفة، حتى تعالج أمورها على بصيرة من العلم والفهم فدعا جماعة منهم إلى إشتراك المرأة في سائر تكاليف الحياة لتنهض مع الرجل جنبا إلى جنب. و كانت هذه الدعوات جديدة على المجتمع الشرقى فتلقاها بكثير من الإنكار، وارتفعت صيحات مدوية ترمى هئولاء الدعاة بالفسق والفجور والسفه والكفر، وهذا شأن كل جديد لا عهد للمجتمع به، فكانت هذه المنابزة بين جماعة المجددين الذين دعوا إلى تحرير المرأة وجماعة المحافظين الذين يرون الإبقاء على ما هي عليه من التأخر والهوان.

رأى الرصافي هذا وقرا الحالة في غير بلده، ورأى انبعاث النور الذى يبشر بإشراق شمس المرأة على المجتمعات، فآلى على نفسه أن يعمل على إنهاض المرأة العراقية لتساير أختها في بلاد الغرب والشرق، فأرسلها صيحات مدوية في سبيل خلاصها، وانفرد ديوانه بباب خاص سماه "النسائيات" وفي هذاالباب دعا إلى رفع ذلك الحيف الذي نزل بالمرأة، وندد بالعادات والتقاليد التي جرى عليها ألوان العسف وصنوف العذاب في الحجب والتضييق والحرمان.

وأولى قصائد هذاالباب قصيدة "المرأة في الشرق" فيها يرجع ماأصاب أهل الشرق من التدهور إلى إغفال شأن المرأة، وسلبها حريتها مجاراة للعادات التي درج عليها الشرقيون، فأصبحت هذه العادات قيودا وأغلالا لا يستطيعون الانفكاك من إسارها:

ألا ما لأهـل المشـرق فـي برحـاء يعيشون في ذل به و شقاء
لقد حكموا العادات حتى غدت لهم بمـنزلة الأقياد لـلأسـراء[2]

ثم يشرح علة البرحاء، ويذكر سبب ما يقاسون بنت الشقاء:

لقد غمطوا حق النساء فشددوا عليهن في حبس و طول ثواء
وقد ألزموهن الحجاب وأنكروا عليهن إلا خرجه بغطاء

و في هذه القصيدة يصور الحالة البائسة التي آل إليها أمر المرأة في الشرق حتى صارت كسقط المتاع. وكأنهم لايعرفونها لغير الاسمتاع فألحقوا بالنساء العار:

وقد زعموا أن لسن يصلحن في الدنا لغـــير قرار في البيـــوت وبـــــاء
فمـــاهـــن إلا متعـــة مـن مـتاعـهم وإن صن عن بيـــع لـــهم وشـــــراء
أهـــانـــوا بهن الأمـــهات فأصبحـــوا بما فعلـــوا مـــن الأم اللـــــؤمـــــــاء[3]

وينفرد الرصافي دون الدعاة إلى تحرير المرأة بمعنى من أسمى المعاني، ولا نظن أحدا من دعاة حريتها، ورسل نهضتها استطاع أن يقول في حقها ما قال الرصافي.

أعلن الرصافي أن تقييد المرأة وأسرها في المنزل، حتى أصبحت الحرائر جواري وإماء، هو الذي جعل الرجال يستمرون حياة الذل والإستعباد، لأنهم ربوا في حجور الإماء، والولد بأبويه أشبه، وبهما ألصق، فأشربو الذل والهوان، لأنهم رضوا بأمهاتهم، أو لزوجاتهم هذا الذل وذلك الهوان، فقد تعودت الأمة أن تستجيب ارغبة سيدها ومالك رقها، فرضي هو لنفسه الخضوع والاستسلام لحكامه الظالمين، وسادته المتعسفين:

ولـــو أنهم أبقـــوا لـــهن كـــرامـــة لكانـــوا بما أبقـــوا من الكرمـاء!
ألـم تـرهـــم أمســـوا عبيـدا لأنـــهم على الذل شبوا في حجور إماء؟
و هان عليهم حين هانت نساؤهـــــم تحمـــل جـــور الساسـة الغرباء[4]

وكما طلب الرصافي العلم للرجال، طلبه للمرأة، وعد الجهل الذي تسلط على الرجال هو الذي جعلهم يرون في تعليم المرأة ثورة على العفاف، وليس من الدين في شئ أن تحرم المرأة الإرتواء من حياض المعرفة، فيقول:

عنا كب الجهل كن ألقت بأدمغة من الأنـام نسيجـا مـن خـرافـات
فحرمـوا وأحلـوا حسب عادتهم وشـوهـوا وجـه أحكـام الديـانات
حتى تراهم يـرون العلم منقصة عند النسـاء ولو كـن العفيفـــات
وحجبـوهـن خوف العار، ليتهم خافوا عليهن من عار الجهالات![5]

رأى الرصافي هذه الظاهرة التي آلمته، رأى رجلا يرضى لنفسه أن يكون امرأة، فتنحل شخصيته، وتهوى رجولته، ولم يجر هذا الخطب الوبيل إلا المبالغة في حجب المرأة والتضييق عليها. وتلك نظرة الفطن الأريب الذي سجل بنفثاته نواحى الضعف في المجتمع:

ومالعار أن تبدو الفتاة بمسرح تـمثل حالى عـــزة و إبـــاء
ولكن عــارا أن تـزيا رجالـكم على مسرح التمثيل زي نســاء[6]

وإنه ليرسل شكاته إلى رب السماء بعد ما كاد يقنط من ترديدها على مسامع الناس، وليست هذه الشكاة الضارعة لشئ سوى جهل النساء وتأخرهن!:

و ذلك أنـا لا تـزال نســـاؤنـا تعيش الجمـع بجهل وانفصـــال
و أكبر ما أشكو من القوم أنهم يعدون تشديد الحجاب من الشرع[7]

وللرصافي نفحة شعرية، أسبغ عليها فنه، وأضفى عليها سابغ الخيال الرشيق وثوب الشعر الأنيق، فيصور المرأة حمامة، وفي حجبها ووجهها نتف ريشها، وليس يطيب لها من دون التغريد، وقد حرمت أغز ما تحرص عليه وهو الذي به تطير وحريتها التي يطيب لها التغريد. وليس ذلك في شرع ولا كتاب ولكنه ادعاء المتعسفين الجائرين:

أفي الشرع إعدام الحمامة ريشهـا وإسكاتها فوق الغصون عن السجع
و قد أطلق اخلاق منها جناحهـــا و علمهـا كيف الوقوع على الزرع[8]

ويعود الرصافي إلى أناته وإلى ترديد شكاته، وهذه المظلومة هي سر شقائه وعلة بكائه، ولكنه بكاء بغير دموع، وقد يكون في الدمع الشفاء مما يقاسى الكليم المعمود:

فتلك التي مـــازلت أبكى لأجلـــها بكاء إذا مـــااشتـــد أدى إلى الصـــرع
بكيت بلا دمع ومـن كان حزنـــه شديدا بكى من غير صوت ولا دمع[9]

وله إلى جانب هذا الشعر الإجتماعي الوجداني في المرأة الشرقية بعامة، شعر خص به المرأة المسلمة، لأنها أكثر النساء عذابا؛ ومن ذالك قوله:

لم أر بين الناس ذا مظلمة أحـق بالرحمـــة من مسلمـــة

قد جعلوا الجهل صوانا لها من كل ما يدعوا إلى المأثمة
والعلم أعلى رتبة عندهم من أن تلقاه وأن تعلمه[10]

ويدع هذا التصوير لما تكابد من البؤس الأليم من الجهل والحجب إلى ما يرى من وجوب إشراكها في العمل كالرجل، ولكنه لاينادي بهذا على أنه حق مسلم به للمرأة المسلمة، ولكنه يرى هذا الرأي لها لكسب القوت، حين تعدم الكاسب لها، أو تحرم الولي الذي يقوم عنها بالكفاح في سبيل العيش والحياة:

ما تصنع المرأة محبوسة في بيتها إن أصبحت معدمة؟
ضاقت بها العيشة إذ دونها سدت جميع الطرق المعلمة[11]

وعلى عادة الرصافي من مشاركة كل ذي ألم في ألمه يذرف هذه العبرات على بعض البائسات المقعدات عن طلب الرزق، فعاش طاويات ساغبات:

كم في بيوت القوم من حرة تبكي من البؤس بعيني أمه
قد لوحت نار الطوى وجهها وأعمل الفقر بها ميسمه
عاب عليها قومها ضلة أن تكسب القوت وأن تطعمه
من أي وجه تبتغي رزقها وطرقها بالجهل مستبهمة؟
و كيف والقوم رأوا سعيها في طلب الرزق من الملأمه؟[12]

تلك حال قعيدة الدار من الحرائر صيرها البؤس من الإماء، وكان لها من سعيها إن يسر لها السعي ما يضمن لها الإبقاء على عزتها وكرامتها.

لقد شن الرصافي حربا لاهوادة فيها على التقاليد التي لاتعطى المرأة أي حق في حرية اختيار الزوج الذي كتب عليها أن يكون شريك حياتها، بل يبيعها وليها بيع السائمة لمن يغدق المهر، ويغلي الثمن، دون نظر إلى غير ذلك من المقومات، أو هذا البعل الذي استطاع أن يظفر بها بما أغلاه من المهر، يبسط عليها ما وسعه من سلطان، إن شاء ضربها، وإن أراد جسها، وإن شاء طلقها، وهذه هي المرأة بين دار أبيها، وبيت بعلها محبوسة مظلومة، وهذه المعاني يبسطها الشاعر في خمسة أبيات صور فيها هوان المرأة:

ماأهون الأنثى على ذكراننا فلقد شجاني ذلها وخضوعها

ضعفت فحجتها البكاء لخصمها وسلاحها عند الدفاع دموعها
هي متعة المستمتعين وليتها كانت لزاما لايجوز بيعها
فوليها عند الزواج يبيعها وحليلها عند الطلاق يضيعها
وكلاهما متحكم في أمرها هذا يعريها وذاك يجيعها[13]

وللشاعر غير هذه النفثات معان أخرى سامية في قصيدته " حرية الزواج عندنا " وفيها ينحى على الذين تعلقوا بالحجاب؛ زاعمين بأن فيه الصون والرشاد للمرأة فصاروا يهتمون بظواهر الأمور دون ألبابها؛ فالحرة الكريمة عندهم من لزمت الحجاب وارتدت النقاب ولو أخفت تحت هذه الظواهر والقشور شرا مستطيرا:

قل للألي ضربوا الحجاب على النسا هل تعلمون بما جرى تحت العبا؟
شرف المليحة أن تكون أديبة وحجابها في الناس أن تتهذبا
والوجه إن كان الحياء نقابه أغنى فتاة الحي أن تتنقبا
واللؤم جمع أن تكون نساؤنا مثل النعاج وأن نكون الأذؤبا[14]

ويصل نهضة الشرق بنهضة المرأة التي لن تكتمل إلا إذا ساهمت فيها المرأة بعلمها وأدبها، وليس ينهض مجتمع عطل نصف جسمه:

هل يعلم الشرقي أن حياته تعلو إذا ربى البنات وهذبا؟
وقضى لها بالحق دون تحكم فيها وعلمها العلوم وأدبا؟
والشرق ليس بناهض إلا إذا أدنى النساء من الرجال وقربا
فإذا ادعيت تقدما لرجاله جاء التأخر في النساء مكذبا
من أين ينهض قائما من نصفه يشكو السقام بفالج متوصبا
كيف البقاء له بغير تناسب؟ والدهر خصص بالبقاء الأنسبا؟[15]

والرصافي الذي تفتق لسانه بهذا الشعر العاطفي الذي حبابه المراة وحنا عليها، وعاب على الواقفين في سبيل نهضتها، ومنتزعيها لحريتها، هالته آفة من آفات المجتمع الإسلامي، وهي الطلاق الذي أحله الإسلام لرفع الحرج إذا تعسر الإتفاق بين الزوجين، ولكنه جعله أبغض الحلال إلى الله.

وقد اتخذه كثير من المسلمين في هذا العصر هزوا ولعبا، فالمتكلم في لغو الحديث يؤكد حديثه بالقسم بالطلاق، وكثيرا ما يجر هذا القسم العابث إلى بينونة الحليلة عن حليلها وما يجر ذلك من تخريب بيوت كانت آهلة عامرة، ونشر يد الولدان والولائد أو تربيتهم على الدال والمهانة في حجور ربائبهم، ومن خوف هذا المصير لا تشعر المرأة بالأمن أو الإستقرار في ظل الزوجية، فبقيت حياتها مضطربة قلقلة.

وفي قصيدة " المطلقة " قصة زوجين عاشا سعيدين، حتى فرق بينهما سبب تافه لا ذنب للزوجة فيه؛ لقد اختلف زوجها مع بعض خلطائه، فأراد أن يؤثق رأيه فلم يجد إلا يمين الطلاق:

فأقسم بالطلاق لهم يمينا وتلك أليـة خـطأ وحـــوب
طلقها على جهـل ثلاثـا كذلك يجهل الرجل الغضوب
وأفتى بالطـلاق طلاق بت ذور فتيا تعصبـــهم عصيب
فبانت عنه لم تأت الدنايا ولم يعلق بهـا الذام المعيب
فظلت وهي باكية تنـادى بصوت منه ترتجف القلوب[16]

وفي أسلوب قصصي يسوق محاورة يتخيلها بين هذين الحبيبين اللذين فرق بينهما الطيش، وطوح بسعادتهما الحمق: فها هي ذي الزوجة تسقي زوجها وطليقها كأس العتاب تفيق بالأسى والحسرة، وهو لا يزال يظهر لها تعلقه بحبها، وأنها كلمة شاردة جرت هذا الوبال. ويعرض في ثنايا هذه المحاورة حكمة الشرع في إباحة الطلاق وجمود رجال الدين في فهم مقاصده ومراميه.

وقد أدى هذا الخطب إلى حبل الزوجية فلا ثقة بين الزوجين، ولا طمانينة بين الإلفين؛ حتى عمت الحياة الأسرية روح القلق والإشفاق من هول ذلك المصير:

وهي حبل الزواج ورق حتى يكـــاد إذا نفخـت له يذوب
كخيط من لعاب الشمس أدلت به في الجو هاجرة حلـوب
يمـــزقه من الأفـواه نفـث ويقطعه من النسم الهبوب[17]

نستطيع بعد كل هذا أن يقول إن الرصافي قد حبا النساء بما لم يحب به غيرهن، وإنه نصب نفسه محاميا في الذود عن حقوقهن فهو نصير المرأة غير منازع، ومن رواد نهضتها والآخذين بيدها في الشرق.

وبالرصافي ونظرائه في العراق وفي غير العراق من شعراء العربية أخذت المرأة سبيلها إلى الحياة، فانتبهت وكافحت، فتعلمت، ولا تزال تناضل الرجل لتقتنص من بين يديه حقها موفورا، وما وصلت إليه المرأة في أيامنا يبشر بأن ستبلغ المرأة العربية ما بلغت أختها في بلاد الغرب، وبذلك تحقق آمالها التي صبت إليها منذ زمن طويل.

ب) الإصلاح عند الرصافي:

معروف الرصافي هو داعية من دعاة الإصلاح السياسي والإجتماعي. كان المجتمع العراقي في زمنه مملوء بالفسادات سياسية كانت أو اجتماعية. فقام معروف الرصافي بأشعاره ضد هذه الفسادات، والجدير بالذكر أن الأدب أداة لا غنى للمصلحين عنه وزعماء الإصلاح إذا لم يكونوا بليغا و فصيحا في كتاباتهم و خطاباتهم لا يمكنهم أن أممهم من حيرتها ولا أن يستوقدوا نار الحمية في نفوس ناشئتها فأصبح الأدب عاملا من عوامل تكوين الأمم وإبلاغ رشدها وإنالة إستقلالها.

لا شك فيه أن الرصافي أديب بارع وشاعر كبير. نظم قصائده في موضوعات شتى ومعظمها في إصلاح أحوال السياسية والإجتماعية والدينية والإقتصادية وقد دعا الأمم العربية إلى الإستقلال الإقتصادي وتحريره من السيطرة الأجنبية.

لقد ترددت دعوة الإصلاح في ديوانه كثيراً وهي والكلمات الأخرى مثل الهدى والرشاد والخير تدل في مجملها على مدى اكتراث الشاعر بدعوة الإصلاح، وسنتناول بعض قصائده التي عرض فيها لهذه الدعوة، تأتي قصيدته البائية بعنوان "ما هكذا"، وقد خاطب بها لائحة الإصلاحيين في بيروت، فقد أخذ يؤنبهم ويفند رأيهم في ذلك، بعد أن عقدوا مؤتمراً لهم في باريس في قصيدة ويقول فيها:

راموا الصلاح وقد جاءوا بلائحة خرقاء تترك شمل الشعب مشعوباً
من مبلغ القوم أن المصلحين لهم أمسوا كمن لبس الجلباب مقلوبا
ما باهم وطريق الحق واضحة لا يسلكون إلى الإصلاح ملحوبا
قاموا يريدون إصلاحاً فقمتُ لهم استنطق الشعر تأهيلاً وترحيباً[18]

ويشير الرصافي إلى المعوّقين والمثبطين عن الخير، بمناسبة افتتاح مكتبة الأوقاف سنة 1928م:

أرى هؤلاء ضعاف العقول و إن قد تراهم غِلاظ الرِّقبْ
فهم يقطعون على المصلحين طريق القيام بما قد وجب[19]

والإصلاح عند الرصافي ليس مقصوراً على المجال السياسي والاجتماعي، والصلاح خُلُقٌ يمكن أن يؤخذ تلقيناً أو يورث عن الوالدين، ويمكن للفنان أن يكون صاحب رسالة في هذا المجال، والفن – إذا استقام – هادٍ للناس على اختلاف مشاربهم فيقول:

تلك الفنون فطِرْ إلى سِعة بها إن كنت تشكو في الحياة الضّيقا
و تجيء من عبر الزمان بمشهد يلقى خشوعاً في النفوس عميقا
ويكون منظره الرهيب ممهداً لمشاهديه إلى الصلاح طريقا[20]

والحياة لا تستقيم بدون الفنون:

شهِد الله أن كل حياة لم تزنها بدائع الفن سمجة[21]

لقد بذل شطراً طويلاً من حياته لدعوة الإصلاح، وعالجه على مستويات مختلفة، فقد ألف لطلاب المدارس ديواناً للأناشيد المدرسية، ومجموعة أخرى سمّاها *تمائم التربية والتعليم*، وكانت رسالته واضحة، لأن الأطفال هم معقد الأمل، ولذلك استهل هذه التمائم يقول: "مستقبل كل أمة منوط بجهودها، ولذا أخذ المفكرون من رجال الأمم الراقية يتحرَّون وسائل الاستفادة من أبناء المدارس..".[22]

وتمتزج دعوته إلى الإصلاح بروح التجديد، فينادي بها كل المناداة..

فيا قومنا إن العلوم تجددت فإن كنتم تهوونها فتجددوا[23]

ويؤكد الرصافي على حرية الفكر ولا سيما أن مفهوم الحرية مهم في شريعة يسود فيها الأقوياء:

أحب الفتى أن يستقل بنفسه فيصبح في أفكاره مطلقاً حرا
وأكره منه أن يكون مقلداً فيحشر في الدنيا أسيراً مع الأسرى
إذا كان في الأوطان للناس غاية فحرية الأفكار غايتها الكبرى
إذا السيف لم يعضده رأي محرر فلا تأملن من حدّه ضربة بكر[24]

ولا يقل دور الاقتصاد عن السياسة، إذ نجد الشاعر يحيي وفد مصر في هذا المجال بعد أن زار العراق يرأسه طلعت حرب، ويشيد بتأسيسه المصانع والمعامل والبنوك:

إذا ما مصر في المال استقلت فلا تخشى التأخر في السياسة
فإن المال أكبر ما يُرجّى به نيل السعادة والرئاسة
إذا ما الشعب كان أسير فقر فما تجدي السياسة والحماسة[25]

ويعاود إلى مفهوم الحرية في قصيدة أخرى طويلة بعنوان "المجلس العمومي" تشعر بفرح الشاعر بانبثاقه:

هذا هو المجلس الرحب الذي وسعت أحكامه الناس من عاشوا ومن هلكو
وأصبح الناس في قربى وإن بعدت أدينهم ما بهم حقد ولا حسك
هذا الذي جاءنا الدين الحنيف به وحياً من الله مبعوثاً به الملك
هذا به نهض الإسلام نهضته من قبل إذ قام يستولي ويمتلك[26]

ولا يلبث أن يسخر من مفهوم الحرية في سياسة المستعمرين، وتأتي أبياته على لسانهم بأسلوب تهكمي متميز:

يا قوم لا تتكلّموا إن الكلام محرّم[27]

ولا يفتأ أو يكلّ أو يتردد في فضح أساليب المستعمرين، فيعدد مكايدهم، وأساليبهم في معاملة البلاد المستعمرة ونهب خيراتها:

لقد جمع الدهر المكايد كلها بقدرٍ كبير صِيغ من معدن الخبث
وأوقد ناراً للخديعة تحتها تزيد على نار الغضى أو على الرمث

يقولـون إنـــا عاملـــون لسعدكـــم ولم يعملـوا غيـر الكـوارث والكـرث
وهم سلبوا أرض العراق سمينهـــا و لم يتركوا للقوم فيهـــا سوى الغـث
إذا ما رأيت القوم في فخ مكرهم رققت لهم تبكي على القوم أو ترثـي[28]

ويتعرض الرصافي للإنتداب في أكثر من ثلاث قصائد طويلة يسلك الأسلوب الساخر نفسه في جرأة محمودة له، تعودناها في أشعاره.

وعلى الرغم من اشتداد الدعاوى إلى القومية العربية، وتناميها في ظل غياب الخلافة الإسلامية، فإننا لا نعدم الروح الإسلامية في بعض قصائد الشاعر والدعوة إلى الإعتصام بها:

قل لمـن رام صدعنـا بشقـــاق أنت كالوعل ناطـح الصفوان
ويك إن الإسـلام أوجـد فينـا وحـدة مثـــــل وحـدة الرحـن
فاعتصمنا منهـا بحبـل وثيـق هـو حبـل الإخـاء والإيمـــان
وحـدة جاءنـا من الله فينـــا مرســـــل بالكتاب والفرقـان
ما نرى سلطـة علينـا لخلـق غيـر سلطـان خالـق الأكـوان[29]

الإصلاح في المضمار الإجتماعي:

هل يمكن أن يكون الرصافي معروفاً في عالم المصلحين الإجتماعيين؟ وإلى أي مدى مثل ديوانه الإتجاه الإصلاحي من الناحية الإجتماعية؟ الدراسة الإحصائية تبين بوضوح تفوق هذا الإتجاه عند الشاعر وتبلغ نسبة القصائد الإجتماعية في الديوان 30%، فهو أعلى الأغراض في ديوانه.

لقد نادى بأعلى صوته وأكد ضرورة التفكير بمستقبل الإسلام والمسلمين، والتدبر لمصالحهم على أرض الواقع، وعدم إلقاء الحبل على الغارب، وإشاعة العلم.

لقد دعا الشاعر للأخذ بأسباب القوة، وجاء خطابه المباشر للشباب الذين هم المعوّل عليهم، وقد جاءت هذه الدعوة في قصائد كثيرة من الديوان، فإذا أُسس معهد علمي قام الشاعر مكبراً هذه الروح مثنياً على القائمين عليه:

ومعهد علم أسستـه عِصـــابـــة من القوم تسعى للنجاح و تجهد
شباب مشوا للمكرمـات بعزمـــة تقاعس عنهـا الكوكب المتـوقد

يسرُّ العُلى أن ينهض القو للعُلى وأن يجمع الشبـان للعلـم معهد[30]

ولا ينسى خطاب الشباب يخاطبهم بإصرار شديد ويدعوهم إلى النهوض:

ألا يا شبـــاب القوم إني إلـى العلى لداع فهل مـن يستجيب دعـــائـي

أما آن للأوطان أن تنهضــوا بهـــا لإدراك مـجد و ابتغـــاء عـــلاء

فقد بُح صوتي واستشاطت جوانحي وقل اصطباري واستطـال بكـائـي[31]

ويؤكد على الهمة القعساء، ونبذ التواكل والخلاف:

يا أيها العرب هبّوا مـن رقادكـم فقد بدا الصبح وانجابت دجى الخطر

كيـف النـجاح وأنتم لا اتفـاق لكم والـعود ليس لـه صوت بلا وتـــر

مالـي أراكم أقل النـاس مقـــدرة يـا أكثر الناس عداً غيـر منحصـر[32]

ويقول في أخرى:

معشر العرب أين أنتم من القوم إذا مـا تَمّ انقـــلاب الزمـــان

أنيـامٌ، والـدهـر يفتـح فـيكـــم من جـديديـه مقلتي يقظـــان[33]

ويقدم موازنة طريفة بين أعمدة النهضة الثلاثة العلم والسياسة والأخلاق، وهي أدق معادلة يقدمها الشاعر في سبيل النهوض بالأمة:

أما الْمُـعزّان في الدنيا فإنهمـــا هما على مـا أراه العلم والعلـــم

كلاهما ضـامن للناس حرمتهـــم هذا له الحكم أو هذا له الْحِكـــم

فالعلم في أمة ليست بحاكمـــة كالسيف يحمله في الحرب منهـزم

ما أحسن الْعَلَم الخفاق منتصباً بـه تشيـر إلـى استقلالهـا الأمـــم[34]

ويترجح لديه - كما ترجّح لدى أبي تمام - السيف على العلم فيقول:

قد علمتني الليالي في تقلبها أن الموفق فيها السيف لا القلم[35]

كما تؤكد معادلة العلم مقروناً بالعمل، حين يدعو إلى بناء مؤسسات العلم ممثلة بالمدارس:

قد علمـتني الليـالـي في تقلبهـا حتى نطـاول في بنيـانهـا زحـلا

لا تجعلوا العلم فيها كل غايتكم بل علموا النشء علماً ينتج العملا[36]

ويؤكد على أدوات التعليم وفي مقدمتها المعلم:

فلو قيل من يستنهض القوم للعلا إذا سـاء محيـاهـــم لقلت: المعلـم

معلم أبنـــاء البلاد طبيب بهـم يداوي سقام الجهل، والجهل مسقم[37]

وإذا ما وجد مناسبة فإنه يؤكد على أهمية الكتب والعناية بها من التلف فيحيي بناء مكتبة للأوقاف:

لقد جمع الشيخ هذي الكتب فأنقـذها مـن أكف العطب
فأخـرج منها كنوز العلـوم لأهل الفنـون وأهـل الأدب[38]

ولم تقتصر دعوته إلى العلم فقط، إذ اتجه إلى الجانب الحضاري والعمران في قصيدته "الشارع الكبير ببغداد" حيث يلفت نظر المسؤولين إلى ضرورة تعبيد الطرق والعناية بها:

نكّب الشـــارع الكبيـر ببغـداد ولا تمشي في الأرض إلا اضطرارا
فإذا ما مشيت فـي جـــانبيـــه فتجنب رصيفه المنهـــــــارا
أين هذا من الشوارع في الأمصار زانت بحسنهـــا الأمصـــــــارا؟
عبّدوهـــــــا ومهدوهـا فجائت لا اعـوجاجـأ بـهـا ولا ازورارا[39]

ويخاطب المرأة في عدد من قصائده، والذي يعنيه من الخطاب، ما أصابها من ظلم المجتمع الذي منعها من التعليم، وحال بينها وبين المشاركة في بنائه:

لقد حكّموا العادات حتى غدت لهم بمنـــزلـــــة الأقيـاد للأســـراء
لقد غمطـوا حق النسـاء فشددوا عليهن في حبس وطـــول ثـــواء[40]

ويخاطب الرصافي صاحبة مجلة الخدر بقصيدته فيقول:

وإنـــي لأشكـو عـادة فـي بلادنـــــا رمى الدهر منها هضبة المجد بالصدع
وذلك إنّـا لا تـزال نســـــاؤنـــــا تعيش بجـهل وانفـال عن الجمـــــع[41]

أهي الهزيمة الثقافية التي أوحت للشاعر هذه المعاني؟ أم إنها الهزيمة السياسية التي خضع لها العالم الإسلامي بعد سقوط الدولة العثمانية؟ لكنه في قصيدة أخرى يرى أن الحق ضائع بين الشرق والغرب:

أرى الحق لم يغشى البـلاد وإنمـــا مشى ضارباً في الأرض تلفظه الطرق
فيصبح في أرض ويمسي بغيرهـــا وحيداً فيما يؤويـــــه غرب ولا شرق
إلـى الله نشكو الأمـر من مدنيـــــة تعارض في أوصافهـا الكذب والصدق
سلام على وادي السـلام بـــــــه تفـــاقم هول الخطب واتسع الخرق[42]

ولعل أفضل قصائد الشاعر الثمان، الثانية التي جاءت بنفس طويل فبلغت ثلاثة وخمسين بيتاً، ومطلعها:

هي الأخلاق تنبت كالنبات إذا سقيت بماء المكرمات[43]

وإذا كان فيكتور هيجو(Victor Hugo) قد خلد أدبه رواية "البؤساء" فإن الرصافي يستحق أن يطلق عليه شاعر البؤساء، فقد قرن الشاعر بين الفقر والجهل، حين أنشد قصيدته لشبان العرب في المنتدى الأدبي بالآستانة، وهي بعنوان "نفثة مصدور" فيقول فيها:

أقول وليل الغـــرب ليـــس بنـاءً أما لنيام القوم في الرق من بعـث؟
لقد جاح هذا الشرق بعد اعتـزازه جوائح أودت منه بالكرش والفرث
فساء من الإمـلاق والجهل خلقـــه وصار سمين القوم يبطـش بالغث[44]

وأنكر على الأغنياء غفلتهم عن الفقراء. وأكبر في المحسنين، المنتبهين لذوي الحاجة من اليتامى والفقراء فقال في قصيدته "الإحسان"، في حفلة افتتاح مدرسة الأيتام التي أسستها الجمعية الخيرية الإسلامية في بغداد سنة 1928م:

في مجتنى غرس الخليقة لم أجد غرساً سوى الإحسان حلوَ الْمُجتنا
ما أن تظلل مـوطنٌ بـظـلالـــه إلا أعـــزّ الله ذاك الـمـوطنـــــــا
قد شيد للأيتـــام مـأوى واهبـاً يهتـــم بالأيتـام فيـــه ويُعـتنـــى
والمال إن جـادت به يد محسـن حـسن وإلا فـهـو بئـس المقتنـــى[45]

ونجد روح المحبة والتآخي سائدة في دعوته إلى التعاون بعد تأسيس جمعية حماية الأطفال في بغداد 1938 يقول فيها:

يعيش الناس في حال اجتماع فتحدث بينهم طـرق انتفـاع
ومـــــا مدنيـة الأقـــوام إلا تعاونهم على غرّ المساعي
تشـاد بـه المـلاجئ لليتـامى وتمتـار المطـاعم للجيـاع[46]

وشخّص أدواء المجتمع الأخرى فضلاً عما ذكرناه من الجهل والفقر فأشار إلى أضرار الرشوة والبطالة، وهو "يصور مشاهد بائسة من صميم الحياة الإجتماعية الواقعية زاخرة بالعاطفة المتأججة"[47]. لقد كانت نفس الشاعر مؤهلة، وقلبه مهيأ

لإستقبال هذه الطاقة العظيمة من العواطف، تجاه الفقراء، وذوي الهموم والأحزان، وهو يتصور الحياة كأنها على منطاد، لإضطرابها وعدم استقرارها فيقول:

إنـمـا هـــذه الحياة جروح أثخنـتنا والموت مثـل الضماد
كدّرت عيشيَ الحوادث حتى لا أرى الصفو غير وقت الرقاد
إن لي إن سمعت أنةً محزون أنـينـــاً مرجّـعـــاً في فـؤادي
إن نفسي عن همها ذات شغل بهمـــوم العبـــاد كل العبـاد[48]

ولذلك نجد الإيثار والتسامح غالباً على الشاعر:

فمتاع الحياة أحقر من أن يستفز القلوب بـالأحقـاد
أنا والله لا أريد بـأن أوقـع شراً ولو على من يعادي[49]

ولم ينقطع الأمل من الشاعر، ولم يتسرب اليأس إلى قلبه، على الرغم من تكالب الأعداء على الأمة الإسلامية، وبلوغ الضعف منها مبلغه فقد ظل يتطلع إلى النور ويعلل النفس بالآمال، وأنه غير بعيد عن عدل الله ورحمته فيقول:

إنني مبـصر تبـاشيـر صبـح مستفيض على ظلام الأماني
إنني أستشف مـن غير الدهـر انـقلاباً يـعم كل مكـــــان
وستبـــدو أم النـجـــوم رئـوماً فيداني مـن نورهـا الفرقـدان
يتجلى رب السماوات والأرض علينـا بـعدلـــه والـحنـــــان
يـبوء "الـمستعـــرون" بخسـر وتـضـيء البلاد بـالعمـــران[50]

لم يكن الرصافي بعيداً عن المشكلة الإجتماعية "الفقر" ولم يكن بمنأى عنه، بل عاشه وعاناه واكتوى به، ولم يشأ أن يبيع آخرته بثمن بخس، كما لم تؤثر متع الدنيا وشهواتها على المبادئ التي دافع من أجلها، فقد حالت أنفته وإباؤه وعفته بينه وبين التكسب بشعره، صرح بذلك في رسالة كتبها في بغداد 1922/6/21 م يقول فيها: "ولا أظنكم ترون في الدنيا أتعس حالاً وأنكد حظاً من شاعر تجنب طول حياته سؤال الناس بشعره، ثم ألجأته الضرورة إلى ذلك مرة واحدة، فاختار لمدحه أغنى رجل في العراق فقال فيه الشعر الخالد... وقد علم الله أنني لست من سألة الشعر بل هذه أول مرة (وأرجو أن تكون آخرها أيضاً)".[51]

وفي قصيدة "الفقر والسقام" نجد أسلوباً قصصياً، وأحداثاً مؤلمة تصور رجلاً اسمه بشير وأخته وتتجاوز أحداث القصة عامين، وهي توضح مدى ما شغل الرصافي نفسه من التفكير في الإنسانية.

لما نشأ الرصافي في بغداد كان العراق في ذلك الوقت جزء من السلطة العثمانية وقد رأى الرصافي كيف كان الولاة العثمانيون يسوسون هذه البلاد وعلم ما آلت اليه على أيديهم من خراب وفساد وجهل وبؤس ومرض وما انتابها من فتن ومحن وأحداث جسام..."[52] وعلم كذلك ما كانت عليه في ماضيها الزاهر البعيد من حضارة وعمران إذ كانت أم الدنيا ومشرق النور في العالم كله، لقد عرف الداء وشخص الدواء وكان لهذه الحقيقة أثر ممض في نفسه برز قوياً في شعره وفي أكثر ما قال".، ورغم كل هذه العيوب في السياسة العثمانية إلا أن الرصافي كما يشير هلال ناجي " كان يؤمن بفكرة الدولة الإسلامية ويعتبر الدولة العثمانية حامية للمسلمين، والعرب مكلفون بالإشتراك في الدفاع عن هذا الكيان الإسلامي بحكم إسلاميتهم. على أنالإيمان بالفكرة الإسلامية لم يمنع من تمردهم على سلطة العثمانيين.[53] لما كان يشاهد من تصرفات جائرة وظلم تصيب قومه العرب وعلى سبيل المثال قصيدة" إيقاظ الرقود" ففيها يهجو الحكومة العثمانية وسلطانها وتراه يصفها بالجور والإستبداد ويبشرها بالانهيار وتمزيق الحدود ثم يخاطب السلطان الجائر بسخرية لاذعه تعبر عن جنابه القوي وجرأته المتناهية". قال في قصيدة "إيقاظ الرقود":

حكومة شعبنا جارت وصارت
علـينـــــا تـستبد بما أشارت
فلا أحد دعته ولا استشـــارت
وكل حكومـةٍ ظلمت وجـارت
فــبشرهـا بتمـزيـق الحـــدود[54]

ويمضي في تمرده على هذه السلطة وذمه لها فيقول:

أقـول فليس بعض القول جـــداً
لـسلطـــان تجبـر واستبـــدا
تـعدى في الأمور وما استعـــدا
ألا يـــــا أيهـا الملك المفـــدى
ومن لولاه لـم تك في الوجـــود
فـدتك الناس مـــن ملكٍ مطـــاعٍ
أبـن ما شئت مـــن طرق ابتداع
ولا تـخشى الإلـــه ولا تـراع
فـهل هذه البلاد سوى ضيـــاع
ملـكت او العبـاد سوى عبيـــد
تـنعم في قصـــوركِ غيـــر دارِ
أعـاش الناس أم هم في بـــوار
فـإنك لـــن تطالب بـاعتـذار
وهـب أن الممـــالك في دمـــار
أليس بناء " يلدز " بالمشيـــد[55]

وتعلق الدكتورة عربية توفيق على هذه القصيدة فتقول: "يصور فيها يأسه من هؤلاء وحزنه لإستكانتهم ورضوخهم للهوان.[56] بأقسى أسلوب يصدر عن متمرد إزاء سلطانه الذي كان يحكمه وكان يكفى أن مثل هذا القول أن يؤدي إلى الموت لو دخل إلى أذن الحاكم. وقصيدة " تنبيه النيام " التي نظمها سنة ١٩١٠ ميلادية يدعو فيها الشعب إلى التخلص من النير العثماني وهي من أقسى أدب التمرد الذي يكتبه شاعر عربي ضد سلطان الأتراك، وتشير إليها الدكتورة عربية توفيق وتعدها من أوائل نتاجه في هذا المضمار، يقول فيها:

أما أسد يحمي البـلاد غضنفـر فقد عاث فيها بالظالم سيدهـا
برئت إلى الأحرار من ش أمـة أسيـرة حـكام ثقـال قيـــودها[57]

ثم يصف خضوع القوم واستسلامهم فيقول:

عجبت لقوم يخضعون لدولـــةٍ وأعجب من ذا أنهم يرهبونهـــا
إذا وليت أمر العباد طغاتهـــــا يسوسهم بالموبقـــات عميدها
وأموالها منهم ومنهم جنودهـــــا وسادعلى القوم السراة مسودها[58]

ويبلغ تمرده حد الدعوة إلى الثورة إذ يحث شعبه على الثورة ضد الإستبداد العثماني:

قد استحوذت يا للخسار عليكم وما اتقدت نار الحمية منكـــم
ولولا اتحاد العنصرين لماغد شياطين إنس صال منكم مريدها
لفقد اتحاد فاستطال خمودها من النار يذكو لو علمتم وقودها[59]

ويذكر هلال ناجي أن جريدة " المؤيد " بمصر نشرت للرصافي قصيدة رائعة "شكوى إلى الدستور" وفي هذه القصيدة تحسس عميق لآلام الشعب العربي وكيف أن المستعمرين العثمانيين استدروا واستنزفوا خيرات الوطن العربي ولم يبقوا لساكنيه شيئاً وأن المستعمرين استأثروا بالحكم وصار الناس لهم عبيداً " وفي هذه القصيدة استمرار للتمرد على الوضع الجديد بعد إعلان الدستور الذي لن يغير من وضع العرب شيئا يقول في قصيدة "شكوى إلى الدستور":

قد استأثروا بالحكم وارتزقوا بـــه
كأنّا لهم شاء فهم يحلبوننـــــــا
وهم يأخذون الزبد من بعد مخضها
أترضى بأن تختص بالحكم معشراً
ألم تر إنا طـــول عهدك لم نقم
ولم نك ندرى لاهتضـــام حقوقنا
ولـــــم نستفد إلا سقوط وزارة
وسدوا على من حولهم منبع الرزق
وكم مخضوا أوطاننا مخضةً الرزق
ولم يتركوا لساكنيها سوى المذق
وتصبح للبـــاقين حبراً على رق

نـسابقُ أهل المجد في حلبة السبـق
أنحن من الأحرار أم نحن في رق؟
وتأليف أخرى مثل تلك بلا فرق[60]

ومثل ذلك قصيدته " سوء المنقلب " التي يصور حال قومه وما أصابهم من النكبات والإنحطاط، ويعقب الدكتور يوسف عز الدين على موقف الرصافي في قصائده ويقول " كان يرى أن نظام الحكم سائر في غير مصالح الأكثرية، وكان الرصافي يرى الشعب يعذب من جراء الجوع والمسغبة وهو مسلم يقتضيه الدين الإسلامي وجوب مساعدة هذا الشعب "... ويقول في قصيدة" سوء المنقلب":

بـغداد حسبـك رقـدة وسبات ... ولعتْ بك الأحداث حتى أصبحت
قلب الزمان إليك ظهـر مجّنـه ... ومـن العجـائب أن يمسك ضره
أو مـا تمضك هـذه النكبـات ... أدواء خطبـك مـا لـه أن أسـة
أفكان عندك للزمـان تـرات ... مـن حيثُ ينفع لـودعتـك رعـاة[61]

إلى أن يقول في القصيدة نفسها:

يا صابرين على الأمور تسومهم ... لا تـهملوا الضر اليسير فـإنـه
فـالنار تلهب مـن سقوط شرارة ... لا تـستنيمـوا للزمـان توكـلا
فـإلـى متى تستهلكـون حياتكـم ... تـالله أنفعـالكـم بخلافـه
أفتزعمون بأن ترك السعـى فـي ... إن صـح نـقلكم بـذاك فبينـوا
لـم تلقَ عنـدكـم الحيـاة كرامـةً ... شـقيت بكم لما شقيتم أرضكـم
وجهلتهم النهج السوي إلى العلى ... خسفاً على حين الرجـال أبـاة
إن دام ضـاقت دونه الفلـوات ... والمـاء تجمع سيله القطـرات
فـالـدهر نـزاء لـه وثبـات ... فـوضى وفيكـم غفلـة وأناة
نـزل الكتـاب وجـاءت الآيـات ... هـذه الـحيـاة توكـلُ وتُقاة
أو قـام عـندكم الدليل فهـاتـوا ... فـي حـالـة فكـأنكـم أموات
فلـها بـكـم ولكم بهـا غمرات ... فترادفت منكم بها العثـرات[62]

ولكى نختم المبحث لابد من الإشارة إلى حقيقة واضحة ذكرها هلال ناجي "إن الرصافى حارب النظام الملكي فى شعره وهجا نظام السلاطين وأيد الحكم. إن هذه الحقيقة الناصعة ثابتة.[63] التي نظمها فى عهد الإستبداد العثماني وهو في بغداد قبل سفره إلى الآستانة:

يـا أمـــة رقدت فطـــال رقـدها أيكون ظل الله تارك حكمه المنصوص
أم هـل يكـون خليفـــة لـرسولـــه مـهبى وفـى أمر الملـوك تـــأمـلى
فـــي آي الـكتـــــاب المنـزل مـن حـاد عن هدى النبى المـــرسل[64]

إلى أن يقول في القصيدة نفسها:

إن الحـكومة وهى جمهـــوريـةٌ سـارت إلى نجح العبـــاد بسيـرة
فسموا إلى أوج العلاء ونحن لـــم حتـى استقلوا كالكـواكـب فوقنـا
وعلوا بحيث إذا شخصنا نحـوهم كشف عمايـــــة قلب كل مضلل
أبدتْ لـهـم حمـق الزمـانِ الأول نبرح نسـوخ الحضيض الأسفـل
نبرح نسـوخ الحضيض الاسفـل من تحتهم ضحكوا علينا من عـل[65]

ويمكن أن نلاحظ هنا أن تمرد الرصافي السياسي على الأتراك كان يخضع إلى منهج قصد فيه إلى النصيحة والنقد وحين لم تنفع ذلك فى الإصلاح دعا إلى النظام الجمهوري بعد أن درس أنظمة الحكم في العالم. وأعجب الرصافى بالإشتراكية وخاصة الإشتراكية الإسلامية والتى يقول عنها الدكتور يوسف عز الدين: " ذخيرةٌ من تفكير إسلامي أصيل اختلط بهذه الآراء التي وردتْ من أوربا ومن أجل ذلك وجدنا الآراء التى تتعرض للإشتراكية الإسلامية تجعل الكلأ والماء والنار موارد عامة للإسلام ...وآمن كثير من الشعراء في وقت مبكر بالدعوة الاشتراكية مثل الرصافى"[66] وكذلك صار الرجل العامي يلهج بين حين وآخر بالدعاء المألوف " اللهم انصر الدين والدولة".

تطلعت بريطانية للسيطرة على العراق قبل الحرب العالمية الأولى، وكان ما يثير الأطماع البريطانية هذه، وقوع العراق فى طريق الإتصالات الأمبراطورية

البريطانية في ذلك الوقت، وإمكانات العراق الإقتصادية المتمثلة في ثروتة الزراعية والبترولية.

و خلال الحرب العالمية الأولى احتلت بريطانيا العراق سنة 1917 م و أقامت فيه إدارة عسكرية عملت على ربط العراق إداريا واقتصاديا بالإدارة البريطانية في الهند.

شهد العراق في النصف الثاني من عام 1920م ثورة شملت معظم مدنه، وشارك فيها الشعب على اختلاف طوائفه. وقرر العراقيون إعلان الجهاد ضد بريطانيا، وامتدت ثورة الشعب العراقي خمسة أشهر، شملت معظم المدن العراقية، عدا بغداد، حيث كانت تتركز فيها وحدات الجيش البريطاني. واضطرت بريطانيا أمام هذه الثورة إلى طلب التعزيزات من الهند.

كان الرصافي جريئا على الإنكليز، شديدا على سياستهم الإستعمارية في العراق. ويصف لنا الأستاذ كمال إبراهيم موقف الرصافي في هذه الثورة ويقول: "وقف الرصافي كالطود الراسخ أما الأعاصير فلا تنال منه منالاً فاشتد في ورته على الإستعمار وعلى الإنكليز خاصة والضالعين في ركابهم من العرب وأعلن حربه على الملك حسين وأبنائه"[67] ويعلق *هلال ناجي* على موقف الرصافي فيقول : "لا يوجد في تاريخ الشعر العربي الحديث عامة ولا في تاريخ العراق الحديث خاصة شاعراً ناهض الاستعمار الإنكليزي وكافحه واكتوى بناره وجعل من شعره سوطاً يلهب به ظهور المستعمرين كالرصافي"،[68] ولعل السبب الأول في كره الرصافي للسلطة هو ما ذكره *الدكتور* يوسف عز الدين حين يقول: "للرصافي فلسفته الواقعية، فهو يريد أن تجله السلطة، مفضلة إياه على غيره لمنزلته ولشعره، وهو يكره أولئك المنافقين الذين يعملون في السر أشياء تخالف مظاهرهم التي يبدونها للناس"[69] ولم تكن السلطة لتقر الرصافي على حالة هذه وهو لذلك لم ينل ما نال غيره، فشن حرباً على الشعراء المنافقين الذين يلبسون الباطل بالحق وأعلن كرهه للسياسة والسياسيين فقال:

قد أبتْ هذه السياســـة إلا وأبتْ أن تصافح الناس إلا

كلما مستْ الأمــور بكــف أن تكون الغشاشة الدساسه
بيدٍ من خديعةٍ في راســـه لوثتها بما بها من نجاســـه[70]

والحق كان مع الرصافي فإن الأمور كانت تصور عكس حقيقتها وأشار الدكتور يوسف عز الدين إلى ذلك وقال : "فقد كان العراق مستعمراً ولكنه يسمى مستقلاً أو ملكياً وكان الساسة يموهون على الشعب ويسخرون منه باسم النظام الدستوري تارة وبالديمقراطية تارة وباسم الحرية والإستقلال آونة أخرى لذلك سلط الرصافي لسانه على هؤلاء الساسة " [71] وللوقوف على شعر الرصافي في هذه الفترة لابد من ذكر المراحل التي مر بها العراق في ظل الحكم الإنكليزي.

المرحلة الأولى من سنة ١٩١٧- ١٩٢١:

وكان الحكم في العراق خلالها إنكليزياً عسكرياً مباشر. وأبرز قصائد الرصافي في هذه المرحلة قصيدة "نواح دجلة " والتي قالها بعد سقوط بغداد بيد الإنكليز جواباً على قصيدة للشاعر التركي سليمان نظيف وفي قصيدة "نواح دجلة" يتمنى الرصافي في أن يعود العثمانيون إلى الحكم وأوضح أن دجلة باق على الوفاء وباق على الولاء لآل عثمان وإن كانت بقلبه مما يحب جراح من حكمهم! والسبب في ذلك هو كون الدولة العثمانية دولة مسلمة لهذا فضلها الرصافي على الإستعمار الإنكليزي. يقول الرصافي في" نواح دجلة" :

هــي عيني ودمعهـــا نضاح كل حــزن لمائهـا يمتـــاح
كيف لا أذرف الدموع وعزي قد رمتني يد الزمان بخطب
بيد الـــذل هـــالك مجتاح جـلل مـــا لليلـة إصبـاح[72]

و يقول في نفس القصيدة:

كيف يغضون عـن إغاثه واد فعليه من فخرِ عثمان تـــاج
أنا باق على الوفاء وإن كانت فإليـهـــم ومـنـهـم أشكـــو
زانه مـــن ودادهـم أوضاح ولـه رايـةُ الـهلالِ وشـــاح
بـقلبـي ممـــن أحـب جـراح بـلغيهم شكايتي يـا ريـــاح[73]

ويرى هلال ناجي "أن قصيدة "الحق والقوة" قد نظمت في فترة الإحتلال ذاتها ففيها يصور الرصافي تعارض الكذب والصدق في المدينة ويشير إلى أن ساسة الغرب يدعون بأشياء باطلة ضحك الحق من بطلانها ويضرب مثلاً أنهم منعوا رق الأفراد وأجازوا رق الشعوب.." [74]يقول في قصيدة "الحق والقوة":

إلـى الله نشكو الأمر مــن مدينــة تعارض في أوصافها الكذب والصدق
وكم قد سمعنا ساسة الغرب تدعي فـهـم مـنـعـوا رق الأسيـر وإنـمـــا
بأشياء من بطلانها ضحك الـحـــق أجـازوا لـهم أن يشمـــل الأمم الـرق[75]

المرحلة الثانية من سنة ١٩٢١-١٩٣٠:

وكان الإنكليز يحكمون العراق بوساطة حكومة تحت انتدابهم، وفي مقال الدكتور فؤاد الحاج يصف الانتداب ويقول : "هو تحريف لكلمة احتلال مباشر "، [76]ويصف لنا الدكتور هذه الحكومة فيقول: " وفي ٢٣ آب /١٩٢١ أقيم حفل تتويج فيصل ملكا على العراق بعد انتخابات صورية بطبيعة الحال فاز فيها فيصل بأغلبية الأصوات ...فتشاءم الرصافي من ذلك وأحس أن العراق الذي كان تخلص من الحكم الإنكليزي المباشر سيقع في مصير أشد قسوة وأفظع أمراً ذلك بعد أن يتولى الأمر فيه ملك وليس له من الملك إلا الاسم " [77] ولبيان سبب تشاؤم الرصافي نذكر رأيه في السياسة البريطانية يقول الأستاذ الرصافي: " سياسة الإنكليز الإستعمارية تدل بوضوح على أن مجد إمبراطوريتهم مصبوغ من أوله إلى آخره بصبغة الخداع والتمويه فهذه الصيغة هي السمة التي تعرف بها سياستهم الإستعمارية والميزة التي تمتاز بها عن غيرها، كما أنهم الأساس الذي قام عليه مجد إمبراطوريتهم " [78] ويلخص لنا الدكتور يوسف عز الدين دوافع كراهية الملك فيصل ويقول: "ويبدو أن هناك دافعين دفعا الشاعر الرصافي إلى كراهية الملك فيصل:

الأول: اعتقاده بأن العراق يجب أن يكون محكوماً من أبناء العراق...

والسبب الثاني: اعتقاده أن الإنكليز والفرنسيين ما جاءوا إلا لإستعمار البلاد العربية وتفريق شملها والقضاء على الإسلام". ولتوضيح الصورة أكثر نقف على

جانب من آرائه السياسية في الرسالة العراقية يقول الأستاذ الرصافي: "هذا العراق وكل ما جرى فيه من سياستهم الإستعمارية قد رأيناه بأعيننا ولمسناه بأيدينا فهو أصدق شاهد بصحة ما نقول وهل من العراقيين من يجهل أنهم بعد تأليفهم الحكومة العراقية كما يشتهون، وبعد جعلهم خدينهم الأمير فيصلاً ملكاً على العراق رفع الشعب العراقي عقيرته ينادى بمقت الإنتداب البريطاني ويطلب الإستقلال. واستمرت ضوضاؤه في ذلك بضع سنين حتى ابتدعت سياستهم الإستعمارية المبنية على الخداع والتموية طريقة لتبديل لفظ الإنتداب لا معناه بلفظ الإستقلال وكان هذا التبديل اللفظي جارياً على يد الملك فيصل ومن ورائه وزارته العراقية ومجلسها النيابي المعلوم[79] "

وفي فورة من فورات تمرده التي بلغت أقصى ما يصرخ به متمرد قوله في وصف الدولة المصنوعة من الورق فيقول:

علم ودستـــــور ومجلس أمـة أسماء ليس لنـا سوى ألفاظَهـا
من يقرأ الدستـــور يعلـــم أنـه مـن يأتِ مجلسنـا يصدق أنـــه
كلٌّ عن المعنى الصحيح محرف أما معانيها فليســـت تعـرف
وفقاً لصـــك الانتداب مصنف لمراد غير الناخبيـن مؤلـف[80]

وفي صورة أخرى فيما يخص العراق ينبه الرصافي إلى سلطان الإنكليز داخل الحكم الوطني الذي لم يكن إلا إطاراً لحكم استعماري بشكل آخر. قال في قصيدة " بين الإنتداب والإستقلال":

سل الإنكليزي الذي لم يزل له أأنت وزير أم عميـــد وزارة
فهـا أنت ملقـاة إليك أمورنـا وتـأخذ منـا راتبـاً كموظـف
بدستِ وزير الداخليـة معقد نـراك إليهـا كل يـوم تـردد
تحل لنا ما شئت منها وتعقّـد وهذا لعمـر الله أنكى وأنكـد[81]

إلى أن يقول في القصيدة نفسها:

خلقتم لنـا من كل عهـد ممـوه إلى أن غدا استقلالنا ضحكة الورى
وصار كسيف قـاطع في أكفكـم وهل يستقل الشعب في حكم نفسـه
ولا يعجبوا أن يمقت الشعب دأبكم قيـوداً بـهـا استقـلالنا يتقيـد

بـه سـاخـر كـل امـرىء ومنـدد يـجـرد للإرهـاب طـوراً ويغْمـد
إذا لـم يكـن في حكمـه يتفـــرد فـيظـهر وهو السـاخــطَ المتـرد[82]

وهو في تمرده لم تسلم مؤسسة من مؤسسات هذا الحكم المصطنع من نقده وفي الرسالة العراقية في مقال له تحت عنوان" كيف تؤلف الوزارة؟ " يقول الأستاذ الرصافي : "الحكومة العراقية شبه النعامة لا طير ولا جمل فلا هي من هذا ولا هي من ذاك بل اعتبرت أهل العراق ثلاثة عناصر فكان من لوازم ذلك أن تؤلف الوزارة من العناصر الثلاثة من يوم ألفها الإنكليز على هذا الوجه عقب الثورة العربية إلى يومنا هذا. والإنكليز معذورون في تأليفهم إياها على هذا الوجه لأن مصلحتهم الإستعمارية تقتضي ذلك " [83] ويقول الرصافي في قصيدة " الوزارة المذنبة":

بيع لـلطماع فيهـا حقكم بيع الخســاره
فكأن الحكم والعـــد ل بها قط وفـــاره
كم وزيرٍ هو كالـوز رعلى ظهر الوزاره
مقحم لو كان لفظـا شخصه كان استعاره
ووزير ملحق كالذل بل في عجزِ الحمـاره[84]

وفي القصيدة نفسها يدعوهم للتمرد والثورة على هذه الوزارة:

يا بني الأوطانِ هبوا وانقضوا هذه الغراره
إن وجـه الـحق بـاد كـسـراج في منـــاره
أدركـوا الحقَ فقد شلت على الحق الإغاره
لا تسـل عنـه وزير القوم واسأل مستشاره
فوزيـر القـومِ لا يعمل من غيرِ إشـــاره[85]

وفي تمرده على الأحكام المفوضة على حرية الرأي ينظم الرصافي قصيدة "الحرية في سياسة المستعمرين":

يـا قوم لا تتكلـموا إن الكلام محـــرم
ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا الـــنـوم
وتأخروا عن كل ما يقضي بأن تتقدمـوا
ودعـوا التفهم جانباً فالخير ألا تفهمـــوا

وتثبتوا في جهلكم فالشر أن تتعلموا
أما السياسة فاتركوا أبدا وإلا تندموا
إن السياسة سرها لو تعلمون مطلسم
وإذا أفضتم في المبا ح من الحديث فجمجموا
والعدل لا تتوسموا والظلم لا تتجهموا
من شاء منكم أن يعيش اليوم وهو مكرم
فليمسِ لا سمع ولا بصر لديه ولا فم[86]

ويعلق الدكتور يوسف عز الدين على تمرد الشعراء في تلك الفترة فيقول:

"كان الشعراء ينظرون إلى الوضع العام العراقي والألم يعصر قلوبهم ونفوسهم فيظهر عليهم طابع الألم ظاهراً. ويبدو بشكل سخرية لاذعة من الحكومة ووزرائها ونوابها، وطورا يظهر مشوبا بالرثاء لهؤلاء الذين جعلوا أنفسهم ممثلين على مسرح السياسة. وأصبح المستشار الإنكليزي فيها المخرج والملقن، وآونة نجد الشاعر متألماً جاداً يحاول معالجة الأمور برزانة وتعقل ويدفع الشعب إلى نبذ هذه المظاهر البراقة الكاذبة التي تعطي المستعمر السيطرة الفعلية وقد كان الرصافي سباقاً إلى تسجيل مظاهر هذا النضال ورسم صورة خالدة للتاريخ في العراق ".[87]

المراجع والمصادر:

---

[1]) الرصافي- دراسة تحليلية بقلم عبداللطيف شراره ص 5، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت- 1960.
[2]) ديوان الرصافي- الجزء الأول و الثاني ص 345 ، منشورات - دار مكتبة الحياة، شارع سوريا، بيروت.
[3]) المصدر السابق، ص 126.
[4]) المصدر السابق، ص 126- 127.
[5]) ديوان الرصافي- الجزء الأول و الثاني ص 112 ، منشورات - دار مكتبة الحياة، شارع سوريا، بيروت.
[6]) ديوان معروف الرصافي- المجلد الثاني، ص 127، دار العودة- بيروت 1972م.

[7]) محاضرات عن معروف الرصافي حياته و شعره ص 183، ألقاها مصطفى علي (على طلبة قسم الدراسات الأدبية) 1953.
[8]) المصدر السابق، ص 183.
[9]) المصدر السابق، ص 183.
[10]) ديوان الرصافي- الجزء الأول و الثاني ص 347، منشورات - دار مكتبة الحياة، شارع سوريا، بيروت.

[11]) محاضرات عن معروف الرصافي حياته و شعره ص 184، ألقاها مصطفى علي (على طلبة قسم الدراسات الأدبية) 1953.
[12]) ديوان الرصافي- الجزء الأول و الثاني ص 347، منشورات - دار مكتبة الحياة، شارع سوريا، بيروت.
[13]) المصدر السابق ص 354.
[14]) محاضرات عن معروف الرصافي حياته و شعره ص 185، ألقاها مصطفى علي (على طلبة قسم الدراسات الأدبية) 1953.
[15]) المصدر السابق ص 185.
[16]) المصدر السابق ص 79.
[17]) المصدر السابق ص 187.
[18]) المصدر السابق ص 120.
[19]) معروف الرصافي- دراسة أدبية لشاعر العراق و بيئته السياسية والإجتماعية ص 111، تأليف دكتور بدوي طبانة- أستاذ النقد الأدبي المساعد، كلية دار العلوم- جامعة القاهرة- الطبعة الثانية- 1957.
[20]) المصدر السابق ص 217.
[21]) المصدر السابق ص 203.
[22]) نشر بتحقيق د. جميل سعيد، ط. دجلة، بغداد، 1984م في ثلاث وستين صفحة 68
[23]) محاضرات عن معروف الرصافي حياته و شعره ص 112، ألقاها مصطفى علي (على طلبة قسم الدراسات الأدبية) 1953.

---

[24]) مصطفى علي
الرصافي- الجزء الأول، صلتي به وصيته مؤلفاته ، الطبعة الأولى ص 247، منشورات مكتبة المثنى ببغداد- 1948.
[25]) رئوف الواعظ
معروف الرصافي و أدبه السياسي ص 117، الطبعة الثانية- مطبعة الرسالة- 1957.
[26]) المصدر السابق ص 173.
[27]) ديوان الرصافي- الجزء الأول و الثاني ص 448، منشورات - دار مكتبة الحياة، شارع سوريا، بيروت.

[28]) المصدر السابق ص 467.
[29]) المصدر السابق ص 243.
[30]) المصدر السابق ص 146.
[31]) ديوان معروف الرصافي- المجلد الثاني، ص129، دار العودة- بيروت ،1972.
[32]) رئوف الواعظ
معروف الرصافي و أدبه السياسي ص 117، الطبعة الثانية- مطبعة الرسالة- 1957.
[33]) ديوان الرصافي- الجزء الأول و الثاني ص 474، منشورات - دار مكتبة الحياة، شارع سوريا، بيروت.

[34]) المصدر السابق ص 185.
[35]) ديوان معروف الرصافي- المجلد الثاني، ص364، دار العودة- بيروت.
[36]) المصدر السابق ص 189.
[37]) المصدر السابق ص 250.
[38]) المصدر السابق ص 275.
[39]) ديوان الرصافي- الجزء الأول و الثاني ص 150، منشورات - دار مكتبة الحياة، شارع سوريا، بيروت.

[40]) محاضرات عن معروف الرصافي حياته و شعره ص 179، ألقاها مصطفى علي (على طلبة قسم الدراسات الأدبية) 1953.
[41]) المصدر السابق ص 77.
[42]) معروف الرصافي- دراسة أدبية لشاعر العراق و بيئته السياسية والإجتماعية ص 265، تأليف دكتور بدوي طبانة- أستاذ النقد الأدبي المساعد، كلية دار العلوم- جامعة القاهرة- الطبعة الثانية- 1957.

[43]) ديوان الرصافي- الجزء الأول و الثاني ص 349، منشورات - دار مكتبة الحياة، شارع سوريا، بيروت.

[44]) المصدر السابق ص 261.
[45]) المصدر السابق ص 243.
[46]) محاضرات عن معروف الرصافي حياته و شعره ص 87، ألقاها مصطفى علي (على طلبة قسم الدراسات الأدبية) 1953.

---

[47]) عبد القادر المغربي، مقدمة الديوان، ص. د - هـ
[48]) رئوف الواعظ
معروف الرصافي و أدبه السياسي ص 135، الطبعة الثانية- مطبعة الرسالة- 1957.
[49]) المصدر السابق ص 197.
[50]) المصدر السابق ص 269.
[51]) نشر بتحقيق د. جميل سعيد، ط. دجلة، بغداد، 1984م في ثلاث وثمانين صفحة
[52]) تطور الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي، ص٧
[53]) معروف الرصافي حياته وأدبه السياسي، ص ٣٠
[54]) ديوان الرصافي- الجزء الأول و الثاني ص 118، منشورات - دار مكتبة الحياة، شارع سوريا، بيروت.
[55]) المصدر السابق ص 129.
[56]) معروف الرصافي حياته وأدبه السياسي، ص ٢٣٢
[57]) ديوان معروف الرصافي- المجلد الثاني، ص479، دار العودة- بيروت.
[58]) رئوف الواعظ
معروف الرصافي و أدبه السياسي ص 131، الطبعة الثانية- مطبعة الرسالة- 1957.
[59]) المصدر السابق ص 135.
[60]) المصدر السابق ص 210.
[61]) ديوان الرصافي- الجزء الأول و الثاني ص 105، منشورات - دار مكتبة الحياة، شارع سوريا، بيروت.
[62]) محاضرات عن معروف الرصافي حياته و شعره ص 72، ألقاها مصطفى علي (على طلبة قسم الدراسات الأدبية) 1953.
[63]) الإنكليز في الشعر السياسي الحديث، ١٩١٧- ١٩٥٨ ، ص ١٨٣ - ٤
[64]) رئوف الواعظ
معروف الرصافي و أدبه السياسي ص 144، الطبعة الثانية- مطبعة الرسالة- 1957.
[65]) المصدر السابق ص144 .
[66]) الإنكليز في الشعر السياسي الحديث، ١٩١٧- ١٩٥٨ ، ص ١٨٣-١٨٤
[67]) إبراهيم عاكف الآلوسي, كان وزير المعارف في العراق عند وفاة الرصافي.
[68]) أمين الريحاني – ملوك العرب.
[69]) انظر ديوان الرصافي شرح وتعليقات مصطفى علي، ج ٥ /ص ٤٠٧
[70]) رئوف الواعظ معروف الرصافي و أدبه السياسي ص 133، الطبعة الثانية- مطبعة الرسالة- 1957.
[71]) الصورة الفنية في شعر الرصافي، ص ٢٨٦
[72]) ديوان الرصافي- الجزء الأول و الثاني ص 418، منشورات - دار مكتبة الحياة، شارع سوريا، بيروت.
[73]) المصدر السابق419.
[74]) الرصافي في أوجه وحضيضه، ص ١٥٧
[75]) ديوان معروف الرصافي- المجلد الثاني، ص291، دار العودة- بيروت.
[76]) ديوان الرصافي، ص ١٠٣
[77]) الرصافي في أوجه وحضيضه، ص ١٤٥
[78]) الرصافي في أوجه وحضيضه، ص ١٤٥

---

[79]) المصدر السابق ص 144

[80]) ديوان الرصافي- الجزء الأول و الثاني ص 461، منشورات - دار مكتبة الحياة، شارع سوريا، بيروت.

[81]) المصدر السابق469.

[82]) المصدر السابق470.

[83]) لغة الشعر الحديث في العراق بين مطلع العشرين والحرب العالمية الثانية، ص ٢٩٢

[84]) ديوان معروف الرصافي- المجلد الثاني، 410، دار العودة- بيروت.

[85]) المصدر السابق ص 413 .

[86]) ديوان الرصافي- الجزء الأول و الثاني ص 448، منشورات - دار مكتبة الحياة، شارع سوريا، بيروت.

[87]) حركة التطور والتجديد في الشعر العراقي الحديث، ص ٢٥٢